نظـرات

فـي التمَثِيـل البَلاغــيّ

تأليف

الأستاذ الدكتور/ محمود السيّد شيخون

أستاذ البلاغة والنقد

نائب رئيس جامعة الأزهر

لشؤون التعليم والطلاب

الطبْعَة الثالثة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار البيان للطباعة والنشر

دار البيان

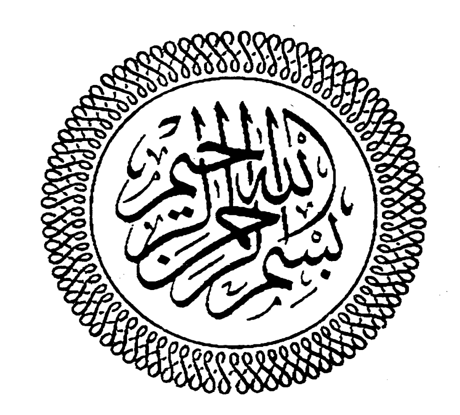
للطباعة
والنشر
والتوزيع

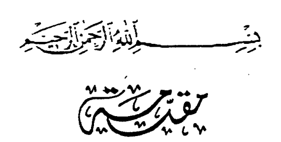


٧،٤ عمارات الجبل الأخضر
بجوار نادى السكة الحديد
ووزارة المالية الجديدة
مدينة نصر
تليفاكس : ٤٨٢٢٤٨٧
تليفون : ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع : ٨١/٢٦٣٤

ترقيم دولى : ٧ - ٦٨ - ٧١٩٦ - ٩٧٧





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فهذه نظرات في التمثيل البلاغى قصدت من ورائها أن أكشف النقاب عن حقيقة هذا اللون البياني الجميل، وأن أميط اللثام عما ينطوى عليه من اللطائف والأسرار ، وأن أتعرف علي الشخصيات التى كان لها أثر في نموه وازدهاره ، وتجلية محاسنه وأسراره.

والله الكريم أسأل أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائما لخدمة لغة القرآن العظيم إنه سميع مجيب، وهو حسبى ونعم الوكيل ،،

الدكتور

محمود السيد شيخون



التمثيل في اللغة:

المثل بالكسر والتحريك وكأمير الشبه وجمعه أمثال ، وتمثل بالشئ ضربه مثلا ، والأمثل الأفضل ، والطريقة المثلى الأشبه بالحق ، وأمثلهم طريقة أعدلهم وأشبههم بأهل الحق وأعلمهم عند نفسه بما يقول ، ومثله له تمثيلا صوره له حتي كأنه ينظر إليه ، وامتثله هو تصوره ، وامتثل طريقته تبعها فلم يعدها[1].

التمثيل في القديم :

لقد كان مفهوم التمثيل عاما عند القدماء من علماء البلاغة والنقد فقد أطلقوه علي كثير من الصور البيانية كالاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه الاصطلاحى فقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ جعله فرعا من ائتلاف اللفظ مع المعني ومثل له بأمثله تشمل كثيرا من الألوان البلاغية[2] وأبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ تحدث عنه تحت اسم المماثلة وأورد له كثيرا من الشواهد الأدبية التي تشمل كثيرا من الصور البيانية كالتشبيه الاصطلاحى والكناية والمجاز والاستعارة وابن رشيق القيرواني المتوفى ٤٦٣هـ جعله ضربا من الاستعارة ومثل له بأمثلة أكثرها من قبيل الكناية والتشبيه الاصطلاحى[3].

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة «مثل» ٤/ ٤٨-٤٩.

(٢) انظر نقد الشعر ، ص٥٨.

(٣) انظر العمدة ١/ ١٨٧-١٨٩.

الفرق بين التمثيل والتشبيه الاصطلاحى :

وظل مفهوم التمثيل عاما حتي جاء الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ فحدد مفهومه ، وفرق بينه وبين التشبيه الاصطلاحى وكشف النقاب عن بلاغته ثم تلاه السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩هـ وهؤلاء الفرسان الثلاثة كانت لهم أياد بيضاء علي هذا الفن البيانى الجميل فقد عنوا عناية تامة بدراسته وإظهار محاسنه والكشف عن لطائفه وأسراره ووضع الحواجز الحصينة بينه وبين التشبيه الاصطلاحي ، وإليك أيها القارى الكريم آراء هؤلاء الفرسان في الفرق بين التمثيل والتشبيه الاصطلاحى.

رأى الشيخ عبد القاهر الجرجانى

قسم الشيخ عبد القاهر التشبيه من حيث وجه الشبه إلى قسمين:

أحدهما : تشبيه غير تمثيل.

وثانيهما : تشبيه تمثيل ، ثم أقام بينهما الحواجز الحصينة حتى لا يلتبس أحدهما بالآخر وهاك موجزا معبرًا عن رأيه[١].

التشبيه غير التمثيلى :

هو ما كان وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه لا يحتاج فيه إلى تأويل وصرف عن الظاهر لأن المشبه مشارك للمشبه به في نفس وجه الشبه وحقيقة جنسه لا في مقتضاه ولازمه. وذلك يتحقق فى أمرين اثنين:

الأول: أن يكون وجه الشبه حسيا أى مدركا بإحدي الحواس الخمس الظاهرة فيكون من المبصرات أو المسموعات أو المشمومات أو المذوقات أو الملموسات سواء أكان الوجه مفردا أم مركبا.

الثانى: أن يكون وجه الشبه غَرَزِيًّا طبعيًا «عقليا حقيقيا» فالغرائز والطباع وإن كانت عقلية لأنها لا تدرك بإحدي الحواس الخمس الظاهرة فقد ألحقها عبد القاهر بالحسيات لأنها حقائق متقررة ثابتة

---

(١) راجع كتاب أسرار البلاغة ص ٦٨ وما بعدها ، الطبعة السادسة ، بمطبعة محمد علي صبيح في سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

تعلمها في المشبه به كما تعلمها في المشبه فالشجاعة والجبن ، والكرم والبخل ، والذكاء والغباء، والقوة والضعف ، والصبر والجزع ، وما إلي ذلك من الكيفيات النفسية حينما يكون واحد منها وجه شبه فالتشبيه المعقود عليه يكون كالتشبيه الذى يكون وجه الشبة فيه حسيا سواء بسواء.

التشبيه التمثيلى :

أما التشبيه التمثيلى عند عبد القاهر فهو مالا يكون وجه الشبة فيه أمرا بينا بنفسه بل يحتاج فى تحصيله إلي تأول وصرف عن الظاهر لأن المشبه غير مشارك للمشبه به في حقيقة وجه الشبه الظاهرى وجنسه ، بل في مقتضاه ولازمه.

فإذا قلت « ألفاظ فلان كالعسل في الحلاوة» فإن «الحلاوة» وجه شبه ظاهرى فقط لأن المشبه به وهو «العسل» يوصف بالحلاوة على سبيل الحقيقة بخلاف المشبه وهو « الألفاظ» فإنه لا يوصف بالحلاوة على سبيل الحقيقة ، ولذا يحتاج إلي التأول بإرادة ما تستلزمه الحلاوة من قبول النفس للشئ وحسن وقعه فيها ، ولا كذلك الحسى، فالذى يشبه الخدود بالورود فى الحمرة يري الحمرة في المشبه كما يراها في المشبه به دون أن يحتاج إلي تأول بصرف اللفظ عن ظاهره.

والخلاصة أن التشبيه التمثيلى عند عبد القاهر محصور في كل

تشبيه كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزى سواء أكان مفردا أم مركبا وأن الشبيه غير التمثيلى محصور في كل تشبيه كان وجه الشبه فيه حسيا أو غرزيا سواء أكان مفردا أم مركبا.

رأى السكاكى

قسم السكاكى التشبيه من حيث وجه الشبه إلي : تشبيه تمثيلى ، وتشبيه غير تمثيلى فالتشبيه التمثيلى عنده: ماكان وجه الشبه فيه مركبا عقليا غير حقيقى[1].

والتشبية غير التمثيلى: ما كان وجه الشبه فيه على خلاف ذلك ، وهذا صادق بالعقلى الحقيقى «الغرزى» والشأن فيه أن يكون مفردا، وكذا العقلى غير الحقيقى إذا كان مفردا ، وكذا جميع الحسيات مفردة كانت أم مركبة[2].

رأى الخطيب القزوينى

قسم الخطيب القزوينى التشبيه من حيث وجه الشبه إلي : تشبيه تمثيلى، وتشبيه غير تمثيلى ، فالتشبيه التمثيلى عنده : « هو ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا من متعدد أمرين أو أمور».

(١) أى غير غرزى بألا يكون من الغرائز والطباع.

(٢) راجع مفتاح العلوم ص ١٤٢، المطبعة الميمنية.

وهذا يتحقق في كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد سواء أكان ذلك الوجه حسيا أم عقليا.

والتشبيه غير التمثيلي عنده : « ما كان وجه الشبه فيه على خلاف ذلك» وهذا يتحقق في كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه مفردا سواء أكان الوجه حسيا أم عقليا.

أمثلة توضح آراء الفرسان الثلاثة السابقة

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

شبه الله حال الدنيا في سرعة زوالها ، وانقراض نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ، وركونهم إليها بحال نبات الأرض ذهبت نضرته فجأة، فجف وصار حطاما بعد مازها ، والتف، وتكاثف.. وزين الأرض بخضرته ، وعم نفعه الإنسان والحيوان، واطمأن الناس إلي دنو ثمره، وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من سرعة الزوال ، وانقراض النعيم بعد الإقبال وعموم النفع واغترار الناس به واعتمادهم عليه.

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤.

وقـال تعـالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١). شبه الله حـال أحبار اليهـود وقد حملوا التوراة، وقرأوها ، وحفظوا ما فيهـا ، ولم يعملوا بها ولا انتفعوا بآياتها بحال حمار يحمل أسفارا هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول وهو جاهل بما فيها ولاحظ له منها إلا ما يكذه ويتعبه.

ووجه الشبه هو شـقاء كل باستصحاب ما يتـضمن المنافع العظيمة والفوائد الشريفة من غير أن يحصل علي شئ من تلك المنافع أو يعود عليه بعض تلك الفوائد(٢) قال أبو تمام يمدح أحمد بن أبى داود وكان قد وشى به إليه فظهر كذب الواشى:

وإذا أراد الله نـشـر فـضـيلة   طويت أتاح لهـا لسـان حسـود
لولا اشتـعال النار فيمـا جاورت   مـا كان يعـرف طيب عرف العـود(٣)

شبـه أبو تمام فـضائله التى نشـرتها الوشـاية مع ما في الوشـاية من المساوئ والأضـرار برائحة العود تظهر النار طيبـها مع ما في النار من الإحراق والايذاء.

---

(١) سورة الجمعة ، اية ٥.
(٢) كتاب الأسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ص ٨١.
(٣) طويت : أخفيت ، أتاح : هيأ ، العرف : الرائحة.

ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من ترتب النفع علي محاولة الضرر.

قال المتنبى من قصيدة له يعاتب فيها سيف الدولة ويفتخر بنفسه(١).

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم   ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى   أنا الثريا وذان الشيب والهرم(٢)

مثل المتنبى حاله مع العيب والنقصان بحال الثريا مع الشيب والهرم، فإذا كان يستحيل قيام هذين بالثريا يستحيل قيام العيب والنقص به.

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من محاولة إلصاق شئ بشئ لا يناسبه.

وقال الشاعر:

نهاية أهواء القلوب بعيدة   ومن دونها للحادثات مصائد
فنحن كطير يبتغى الحب مسرعا   ودون الذى يبغيه فخ وصائد

شبه الشاعر حال الناس في الدنيا يجدون ويجتهدون فى الوصول إلي آمالهم وأمانيهم فتقف الخطوب والأحداث في طريقهم ، وتحول

(١) التبيان لأبى البقاء العكبرى ٣/ ٢٧١.
(٢) الهرم : الكبر والعجز.

بينهم وبينها بحال الطير تسرع إلي التقاط الحب فيقف الفخ والصائد فى طريقها ، ويحولان بينها وبين الحب.

ووجه الشبه هو الطمع في الوصول إلي شئ محبوب مع وجود العوائق التي تمنع من الوصول إليه.

إذا تأملنا هذه المجموعة من الشواهد نجد أن وجه الشبه فيها مركب عقلى غير حقيقى ، وبعرضها علي آراء الفرسان الثلاثة السابقة نجد أن التشبيهات التي اشتملت عليها من قبيل التمثيل عند عبدالقاهر والسكاكى والخطيب القزوينى.

قال ابن النبيه :

والليل تجري الدرارى في مجرته كالروص تطفو علي نهر أزاهره

شبه الشاعر هيئة الليل تسبح فيه النجوم بهيئة الروض تطفو أزاهره علي النهر . ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من أجرام صغار بيض مستديرة متناثرة فوق شئ يميل لونه إلي السواد.

قال الفرزدق:

والشيب ينهض في المشيب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

فقد شبه هيئة ظهور الشيب فى الشباب بهيئة ظهور ضوء الصبح في جوانب الليل ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اختلاط البياض بالسواد.

وقال الشاعر يصف الشمس وقت طلوعها :

ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها   مرآة تبر بدت في كف مرتعش

فقد شبه الشمس وقت طلوعها حيث تكون حمراء لامعة مضطربة بمرآة من ذهب تضطرب في كف ترتعش.

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود شئ أحمر لامع يهتز ويضطرب. إذا تأملنا هذه المجموعة من الشواهد كما تأملنا المجموعة السابقة نجد أن وجه الشبه في كل منها هيئة حسية تدرك بالحواس الخمس الظاهرة وبعرضها علي آراء الفرسان الثلاثة نجد أن ما احتوته من التشبيهات من قبيل التمثيل عند الخطيب القزويني فقط أما عند عبد القاهر والسكاكي فهي ليست من قبيل التمثيل.

قال بعض الأدباء يصف حجة بالوضوح والانكشاف :«حجة كالشمس في الظهور» فشبه الحجة وهي مفرد عقلي بالشمس وهي مفرد حسي في وصف هو «الظهور» وبالنظر في هذا الوصف نجد أنه لا يصلح أن يكون وجه شبه لوجوده في المشبه به«الشمس» دون المشبه «الحجة» لأن الظهور من خاص المحسات ، ووجه الشبه لابُدَّ من وجوده في الطرفين ، ولذا احتيج إلي التأول بصرفه عن ظاهره وذلك بأن يراد مقتضاه ولازمه وهو «عدم المانع من الإدراك ، وبذلك يكون مشتركا بين الطرفين».

هذا المثال وما يجري مجراه من كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه مفردا عقليا غير غرزي تمثيل عند عبد القاهر فقط وتشبيه عند السكاكى والخطيب القزوينى.

ملاحظات علي آراء الفرسان الثلاثة

إن هذه الآراء التي استعرضتها مع وجاهتها ورسوخ أقدام أصحابها فى البلاغة العربية فيها شئ من القصور فعبد القاهر يقصر تشبيه التمثيل علي ما كان الوجه فيه عقليا غير غرزى سواء أكان مفردا أم مركبا، وحجته في ذلك أن مثل هذا الوجه يحتاج في تحصيله إلي إعمال فكر وإلطاف روية«» وينفى التمثيل عما كان الوجه فيه حسيا مركبا مع أن هذا الوجه وإن كان مدركا بالحواس إلا أن انتزاعه من الطرفين ونظمه في هيئة مركبة يحتاج إلي إعمال الفكر وإلطاف الروية كالوجه العقلى فينبغى أن يكون التشبيه المعقود عليه من قبيل التمثيل «لكن عبد القاهر لم ينظمه في سلك التمثيل وهذا قصور منه».

والسكاكى يخص التمثيل بما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا ، لأن هذا الوجه المركب يحتاج في الوصول إليه إلى اعمال الفكر وإرهاف الحس، وأهمل المركب الحسى كا أهمله عبد القاهر مع أنه مشارك للمركب العقلى في احتياجه إلي بذل الجهد والمشقة حتي يمكن تحصيله والعثور عليه .

والخطيب القزويني أطلق اسم التمثيل علي ما كان الوجه فيه مركبا سواء أكان حسيا أم عقليا ، وأهمل ما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير غرزى مع أن هذا الوجه لا يمكن تحصيله والوصول إليه إلا بعد كد الذهن وارهاف الحس، لأنه يستلزم صرف اللفظ عن ظاهره وإرادة مقتضاه ولازمه كما أشرت إلي ذلك فيما سبق.

وإذا تأملنا حديث هؤلاء الفرسان عن التمثيل والتشبيه فإننا نراهم يعتمدون في ايضاح الفرق بينهما علي احتياج الوجه إلي بذل الجهد والمشقة أو عدم احتياجه إلى ذلك ، فإذا كان الطريق إليه سهلا ميسورا لوضوحه وقربه سموا التشبيه المعقود عليه « تشبيها غير تمثيلى » وإذا كان الطرق إليه وعرا لدقته وبعده سموا التشبيه المعقود عليه « تشبيها تمثيليا ، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يكون الفرق بينهما علي النحو التالى :

التمثيل :

هو ما كان الوجه فيه دقيقا لا يدركه ولا يفطن إليه إلا أصحاب الأذواق السلبية الذين ارتفعوا عن طبقة العامة.

وهذا يتحقق في :

(أ) ما كان وجه الشبه فيه مفردا عقليا غير غرزى.

(ب) ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا.

(ج) ما كان وجه الشبه فيه مركبا حسيا.

التشبيه :

ما كان وجه الشبه فيه واضحا بينا لا يحتاج إلي إعمال فكر وإلطاف روية ، وهذا يتحقق في :

(أ) ما كان وجه الشبه فيه مفردا حسيا.

(ب) ما كان وجه الشبه فيه عقليا حقيقيا[1].

من أسرار التمثيل في القرآن

إن من يُمْعن النظر في أسلوب التمثيل في لغة القرآن العظيم يتضح له أنه ينطوى علي كثير من اللطائف والأسرار التي تحرك الأحاسيس والمشاعر ، وتهز العواطف فهو أسلوب قد أحسن استخدامه علي أتم وجه ، ومن ثم فإنه يؤدي دوره وهو متمكن من نفسه ثم من نفوس السامعين فنجده يؤثر تأثيرا قويا في النفوس، ويبرز المعقول في صورة مجسمة ، ويلبس المعنوي ثوب المحسوس، ويفصل المجمل، ويوضح المبهم ، ويصيب المعنى ولأجل هذا التف حوله

(١) والشأن في مثل هذا الوجه أن يكون مفردا.

الأدباء، فأصبح الميدان الفسيح الذى يتنافسون فيه لإظهار مواهبهم، والوسلة المثلى التى ترنو إليها أبصارهم ، وحولها تهفو أمانيهم ، ليستعينوا بها فى إبراز صورهم الأدبية مثيرة موحية معبرة في قوة ووضوح عن المعنى الذى يسيطر علي المقام.

يقول العلامة أبو السعود في تفسيره : «.... والتمثيل ألطف ذريعة إلي تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلي تفهيم الجاهل الغبى ، وقمع سورة الجامح الأبى ، كيف لا ؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها في معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر في صورة المعروف وإظهار للوحشى في هيئة المألوف.

ويقول الزمخشرى :« التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله، وإن كان صغيرا كان المتمثل به كذلك».

وقال الأصبهانى: «لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثال والنظائر شئ ليس بالخفى في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك به المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد ، وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة . وقمع لسورة الجامح الأبى ، فإنه يؤثر في

القلوب مالا يؤثر وصف الشئ في نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالي في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمي سورة الأمثال وفشت في كلام النبى ﷺ وفي كلام الأنبياء والحكماء».

وقال ابن المقفع : «إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق» وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث ».

وقال إبراهيم النظام :« يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ ، وإصابة المعني ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة».

وقال عبد القاهر الجرجانى:« وأعلم أن مما اتّفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعانى أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلي صورته، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع علي أن تعطيها محبة وشغَفاً.

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ،وأغلب علي الممتدح

(١) راجع أسرار البلاغة ص ٨٤-٨٧ الطبعة السادسة ، بمطبعة محمد علي صبيح في سنة ١٣٧٠هـ -١٩٥٩م.

وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير علي الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذما كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد ، وحده أحد . وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر. وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرفه أحد ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا كان إلي القبول أقرب وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل، ولغرب الغضب أفَلّ ، وفي عقد العقود أنفث، وعلي حسن الرجوع أبعث وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعي إلي الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغيابة ، ويبصر الغابة ، ويبرئ العليل . ويشفي الغليل».

وخلاصة القول أن التمثيل يشتمل علي كثير من الأسرا منها:

١ – قوة التأثير.

٢– إبراز المعقول في صورة مجسمة.

٣– إلباس المعنوى ثوب المحسوس.

٤ – الإيجاز.

٥ – الإيضاح.

٦– إصابة المعنى .

٧ - رفع الأستار عن الحقائق.

٨- تقريب المراد للعقل وعرضه في صورة مشوقة.

وهاك بعض الأمثلة التى توضح هذه الأسرار وتجليها:

قال ابن الرومي يصور وعد رجل مخلاف بشجر الخلاف:

بذل الوعد للإخلاء سمحا ∴ وأبى بعد ذلك بذل العطاء

فغدا كالخلاف يورق للعيـــ ∴ ـن ويأبي الإثمار كل الإباء.[١]

مثل حال من يبـذل الوعود السخية ، ثم لا يتـبعها بالتنفيـذ ، بشجر الخلاف يورق الأوراق الكثيرة ، ثم يأبي أن يجود بالثمر.

ووجـه الشبـه هو « الهـيـئة الحـاصلة من حـسن المنظر مع سـوء المخبر ».

قال ابن التلميذ:

أشكو إلي الله صاحبا شكسا ∴ تسعفه النفس وهو يعسفها

فنحــــن كالشمس والهلال ∴ معا تكسبه النور وهو يكسفها[٢]

---

(١) الخلاف بكسـر الخاء: صنف من الصفصـاف وليس به وسمي خلافـا لأن السيل يجئ به سبيا فينبت من خلاف أصله.

(٢) الشكس يوزن فلس صـعب الخلق ، أسعـفه بحاجـته :قضـاها له والمسـاعفـة : المؤاتاه والمسـاعدة العـسف : الأخذ علي غيـر الطريق ومثله التـعسف والاعتـساف والعـسوف: الظلوم.

مثل حاله مع صاحبه يحسن إليه فيقابل إحسانه بالإساءة بحال الشمس مع الهلال تمده بالنور وهو يكسفها ، ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من مقابلة الإحسان بالإساءة».

قال الطغرائى :

وإن علاني من دوني فلا عجب   لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل[1]

مثل حاله وقد علاه من دونه في الفضل والمنزلة بحال الشمس مع زحل يعلوها وهى أسمى منة منزلة ، وأرفع مكانة . ووجه الشبه هو «الهيئة الحاصلة من شئ يعلوه شئ آخر أقل منه نفعا وأدنى مرتبة».

قال ابن لنكك:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا   رأيت صورته من أقبح الصور

وهبك كالشمس في حسن ألم ترنا   نفر منها إذا مالت إلي الضرر

مثل حال الإنسان البهى الطلعة إذا قبح فعله ، فنفر منه الناس، وتجنبوه ، بحال الشمس إذا اشتد حرها ، فنفر منها الناس ، واتقوها ، ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من الشئ الحسن إذا اقترن به الأذى والضرر».

قال عمرو بن لجأ التيمى في مدح آل المهلب بن أبي صفرة:

---

(١) زحل : نجم من الخنس لا ينصرف مثل عمر.

آل المهلب قوم خولوا شرفا ... ما حازه عربي لا ، ولا كادا
لو قيل للمجد حد عنهم وخلهم ... بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواح يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجسادا[1]

مثل المكارم تحل في آل المهلب لا تعدل عنهم بالأرواح تحل في الأجساد، لا غني لها عنها. ووجه الشبه هو «الهيئة الحاصلة من حلول شئ في شئ لا غني له عنه».

قال النابغة من قصيدة له يعتذر فيها للنعمان بن المنذر:

فإنك شمس والنجوم كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

مثل حاله مع الملوك في تفوقه عليهم في القوة وسعة الملك والسلطان ، وتغطيته عليهم بحال الشمس مع الكواكب؛ وأنها إذا طلعت لا يبدو من الكواكب شئ لشدة ضيائها ووجه الشبه هو «الهيئة الحاصلة من التفوق الظاهر للشئ علي غيره».

قال أبو إسحاق الغزى :

لست أنسى قول سلمى ذات يوم ... مالهذا المنحني الظهر ومالى
أنا شمس في الضحى وهو هلال ... وكسوف الشمس من قرب الهلال

(١) خولوا: ملكوا : يقال : خوله الله الشئ تخويلا : ملكه إياه ، حد عنهم : حل عنهم.

قال مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصه يهجو قوما من رواة الشعر بأنهم لا يميزون جيده من رديئة علي كثرة استكثارهم من روايته:

زوامل للأشعار لا علم عندهم يجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائز[1]

مثل رواة الشعر الذين يستكثرون من حفظه ؛ ثم لا يميزون بين الجيد منه والرديء بالأباعر التي تحمل الأوثاق والغرائز غادية ورائحة؛ وهي لا تدري ما في داخلها ، ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من تحمل التعب في استصحاب الشئ مع جهله».

قال بعض الشعراء :

يحد بنا الزمان ونحن نلهو ولا ندرى متي يرد الحمام[2]

ويخدعنا في ظل عيش يمر بنا كما مر الغمام

كركب سفينة فى لج بحر تسير بهم وهم فيها نيام

مثل حال الناس في الدنيا يخدعهم الهوي، ويلهيهم الأمل، وتغرهم الدنيا بزخرفها ومتاعها ، فيعيشون في غفلة ، فلا يحسون بالأيام وهى

---

(١) الزوامل : هي ما يحمل عليها من الإبل وغيرها واحدها زاملة : الأباعر : جمع بعير أوساقه: أحماله ، الغرائز : جمع غرارة بكسر الغين.

(٢) الحمام : قدر الموت.

تسرع بهم إلي نـهايتهم التي يجـهلونها بحـال أناس ركبوا سـفينة . ثم ناموا فـهي تسيـر بهم وهم لا يحسون بهـا . ووجه الشـبه هو « الهيـئة الحاصلة من الغفلة ، وعدم الإحساس والجهل بالنهاية».

قال التهامي :

والصبح قد غمر النجوم كأنه   سيل طغى فطغى علي النوار[1]

مثل هيـئة الصبح وقـد غطى النجوم بضيـائه بهيئـة سيل طغى علي أزهار بيضاء، فسـترها وغطاها، ووجه الشبه هو « الهيـئة الحاصلة من شئ يغطي شيئاً آخر ويستره».

قال عبد المطلب مفتخرا :

لا ينزل المجد إلا في منازلنا   كالنوم ليس له مأوي سوى المقل

مـثل المجـد يحل في منازل قـومه ، لا يعـدل عنهـا بالنوم يحل في المقل لا غنـى له عنها. ووجه الشـبه هو « الهـيئة الحـاصلة من حلول شئ في شئ لا غني له عنه».

قال الشاعر :

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طربا   ∴   فالطير يرقص مذبوحا من الألم

مثل حاله يظـهر السرور ويخفي الألم بحال الطيـر المذبوح يرقص

(١) النوار : أزهار الشـجرة : يقال : نورت الشـجرة تنويرا وأنارت : أخـرجت نورها والنوار مشددا مضموما : نور الشجرة الواحدة.

من شدة الألم ، ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من الشئ يخالف ظاهره باطنه».

قال الشاعر :

رأيتكم تبدون للحرب عدة ∴ ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ∴ ولا يمنع الخراف ما هو حامل[1]

مثل حالهم وقد أعدوا العدة للحرب ، ولم يمنعوا العدو من السلب بحال النخل تشرع شوكها ، ولا تمنع الخراف من جني ثمارها . ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من الشئ يملك وسائل الدفاع ولا يستعملها».

قال الحسن بن هانئ:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

مثل حال الدنيا تغر وتخدع بزينتها ، وتؤلم وتفجع بفعلها بحال عدو ، يرتدى ثياب صديق، فيظهر المودة ويضمر السوء، ووجه الشبه هو « الهيئة الحاصلة من الشئ يخالف ظاهره باطنه».

قال ابن طباطبا:

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه ... نجاة من البأساء بعد وقوع

---

(١) الأسلاب : جمع سلب وهو الشئ المسلوب، الخراف بالخاء المعجمة وتشديد الراء مبالغة من خرف الثمار إذا جناها.

مثل هيئة البدر وهو يخرج من تحت الغيم بهيئة إنسان يخرج من شدة وقع فيها ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الخروج من حالة سيئة إلى حالة حسنة.

إذا أمعنا النظر في التشبيهات التمثيلية التي مضت نجدها قد رفعت الأستار عن الحقائق فأرتنا المتوهم متيقنا والمتخيل متحققا ، وألبست المعنوى ثوب المحسوس، وأبرزت المعقولات في صور مجسمة ، فقربتها من العقول ، وجعلتها مشاهدة ملموسة ، ليست موضع شك، ولا ارتياب، وقد كشفت عن ملامح الخبيئات ، وعبرت بكلمات قليلات عما لا يمكن التعبير عنه إلا بآلاف الكلمات ، وصورت فأجادت ، وأبدعت ، وأكسبت المعاني النبل والشرف ، وفعلت في النفوس فعل السحر.

مع التمثيل في القرآن

لقد تعرضنا فيما مضي لبعض صور التمثيل في الشعر ، ووضحنا ما تنطوى عليه من اللطائف والأسرار ، ولكننا إذا جئنا إلى التمثيل فى القرآن وجدنا أسلوبا فوق طاقة البشر ، ووجدنا تصويرا فنيا عجيبا يعجز عن إدراك شأوه أساطين البيان ، وتسجد له البلاغة في أسمى معانيها ، وإنما كان التمثيل بهذه المثابة ، وتلك المنزلة لاشتماله علي خصائص فنية لا توجد في غيره.

خصائص التمثيل فى القرآن : من هذه الخصائص الفنية :

١ - تماسك الصور التمثيلية في القرآن تماسكا شديدا يجعلها

بحيث لو حاولنا فصل أحد الأجزاء لانفرط عقد الصورة ، وانتثرت معالم الجمال فيها ، ومن هنا تري القوة البيانية متمثلة فى إعطاء الفكرة عن طريق الصورة التمثيلية مركبة الأجزاء ، والعجيب في ذلك أن التمثيل نفسه لم يأت عبثا ، ولكنا نراه يجئ عقب فكرة يراد توضيحها وتمكينها في ذهن السامع ، هذا لما نعلمه من أن الحجة لا تقام إلا بعد طرح الدعوي وبسط الفكرة.

تأمل قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

فقد يتوهم أن المعنى يفهم لو اقتصر في التشبيه علي قوله : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل.

ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا حين يقرن بقية أجزائها إليها من حمل الأسفار ،وعدم الفقه بما فيها ، واعتقاد أنها كبقية الأحمال التي تثقل الكاهل ، وتجهد القوى ، وذلك في جميع أبعاده يطابق حال اليهود، وقد منحوا التوراة لتكون لهم نبعا يستقون منه الحكمة والهداية، ولكنهم يحملونها ، ويكتفون بإثقال سواعدهم بها دون أن يتدبروها ، كأن علي قلوبهم الأقفال(٢).

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٥.

(٢) راجع أسرار البلاغة ص ٧٣-٧٤ الطبعة السادسة ، مطبعة صبيح سنة ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م.

فتمام الصورة لا يحصل إلا بتحميع كل هذه الأجزاء، وإلصاق كل تلك القيود ومن هنا تبرز الصورة قوية التعبير صادقة الأداء.

وتأمل قوله تعالي فى تصوير نفرة الكفار من الدعوة الإسلامية:
﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[1].

فقد يظن أيضا قصير النظر أنه كان يمكن الاكتفاء فى تصوير حالتهم بوصفهم بالحمر ، ولكن المراد غير ذلك ، فالمشركون لايريدون إعمال عقولهم فى خلق السموات والأرض ليهتدوا إلي الخالق ، وهم - في الوقت نفسه - لا يتسجيبون إلى الداعي ، بل كلما عرض عليهم من دعوته ابتعدوا عنه مسرعين ، وكأن في أعماقهم شيئًا يحثهم علي الهرب منه والابتعاد الخاطف من طريق دعوته.

هذه الحالة لا تكفى لها حالة الحمر ، وإنما تقتضى كون هذه الحمر مستنفرة مدفوعة - من نفسها أو من غيرها - إلي العدو الجبان، ثم تزوا تزداد الصورة وضوحا وتمكنا في النفس عندما يلحق بها جزئية الفرار من أسد هصور يطلبها طعاما لأنيابه ومخالبه، فنجدها تتفرق في كل مكان هائمة علي وجهها ، والخوف الشديد يملأ صدورها. فهذا أبلغ تصوير لإعراض الكافرين عن الدعوة ، وهو في

---

(١) المدثر آية ٥٠-٥١.

الوقت نفسه بعث للنفوس العاقلة علي السخرية منهم[1].

٢- انتقاء ألفاظ التمثيل في القرآن ، واختيارها اختيارا مناسبا للمعني، معطيا كل ما يطلبه المقام ومن هنا كان التمثيل فى القرآن موحيا مشعا لا يكاد ينقر حبات القلوب حتي يؤثر فيها بطريقة فنية ونفسية عجيبة.

انظر إلي القرآن العظيم حينما يستخدم أسلوب التمثيل في تصوير فناء هذا العالم ، ودمار تلك الحياة التي يظن أصحابها أنها باقية خالدة لا شئ بعدها.

«﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾[3].

(١) انظر هامش ص ٢٠٠ من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ط القاهرة سنة ١٩٥٠.
(٢) سورة يونس ٢٤.
(٣) الكهف ٤٥.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(١).

فهذه آيات ثلاث ترمي إلي هدف واحد ، وهو عدم الثقة في الحياة الدنيا إلي حد اعتبارها خالدة ، وأنه لا حياة بعدها ، ولكن الأسلوب تجده قد اختلف بعضه عن بعض في درجات متفاوتة ، ولكنها تمثل جيمعا قمة التعبير الأدبى عن هذا المعني الخالد.

يقول الدكتور أحمد بدوي عن بلاغة هذه الآيات الثلاث(٢): «ولجأ القرآن إلي التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهرا أمامنا ، عامرا بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده ، فيجد القرآن في الزرع يرتوى من الماء ، فيصبح بهيجا نضرا يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ، ويصبح هشيما تذروه الرياح - يجد القرآن فى ذلك شبها لهذه الحياة ، ولقد أوجز القرآن مرة فى هذا التشبيه وأطنب أخرى ليستقر معناه فى النفس ويحدث أثره فى القلب فقال مرة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾(٣).

(١) الحديد الآية ٢٠.
(٢) انظر ص ٢٠٩ من كتاب بلاغة القرآن ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م.
(٣) الكهف ،الآية ٤٥.

وقـال مرة أخـرى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾(١).

وقال مرة ثالثة :﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وانظر الى القرآن العظيم حينما يتخذ من أسلوب التمثيل وسيلة إلى التغلغل في أعماق المافقين فيكشف عن منازعهم ونوازعهم ، ويبين خوالجهم ونبضاتهم ، ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم ، فها هو ذا- في أول سورة من سوره الطوال سورة البقرة - يحلل اتجاهاتهم ، ويرسم بأسلوبه المشرق الأخاذ صورة تنبض بما يجيش في أعماقهم ، وتومئ إلي ما حاولوا الحفاظ عليه ، وتفضح ما خفي من نقائصهم ونقائضهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا

(١) سورة الحديد الآية رقم ٢٠.

(٢) سورة يونس الآية رقم ٢٤.

حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾[1].

هذا لون من المنافقين أتاهم الله دينا فيه هداية ، وشريعة فيها صلاح وفلاح ، فآمنوا إيمانا ظاهريا ، وعطلوا عقولهم ، وألغوا تفكيرهم ، ولم ينتفعوا بما جاءهم ، ولم يقتفوا نهج من سلفهم ، وكانوا أمة وحدهم ،فابتكروا لأنفسهم منازع واتجاهات انحرفت بهم عن السنن الظاهر والحجة الواضحة ولم يكتشفوا أنفسهم والهدى القائم بينهم والخير السائد فيهم والنور الغامر لمن حولهم من المؤمنين الخالصين ، فعموا عن ذلك كله ، وضربوا صفحا عن هدى الله ، وجعلوا بينهم وبين النور حجابا منيعا وسدا صلبا ، فعاشوا بمعزل عن الحق، وبمنأى عن الضياء ،يهيمون في ديجوز من الضلال وفى متاهة الباطل، لم ينعموا بما نعم به مخلصو المؤمنين من خير ونور وهدي . مثل هؤلاء الصم البكم العمي في نفاقهم كمثل الذي استوقد نارا لينتفع بها في ليله الحالك فلما أضاءت النار ما حوله ، فرأي الضياء والسناء، سرعان ما أطفأها مطر شديد ذو ريح عاصف أخمد أوارها، وبدد لهيبها ، فتحير وتخبط في الظلمات لا يدي ما يتجنبه ولا ما يتقيه.

(١) البقرة ، الآية ١٤-١٨.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ⑲ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑳﴾[1] وهذا صنف آخر من المنافقين كان فيهم بقية من رجاء ورمق من حياة أصاخوا بحواسهم ومشارهم إلي صوت الإيمان الحق، فاستجابوا له وآمنوا به. ثم ساروا في طريق الله، يقتبسون أحيانا من نور التعاليم الإلهية وتضئ سبيلهم معالم الشريعة ونور الحقيقة ويسيرون خطوات ثم تتهاوى أقدامهم ، وتتعثر خطاهم وتغشى بصائرهم وتزيغ أبصارهم ، وينتكسون عندما يحكمون عقولهم ، وتطغى عليهم تقاليد موروثه وتعتلج في نفوسهم رواسب عفنة ، فتهيج ، وتحيد بهم عن الجادة وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم.

يمثل القرآن حالة هذا الصنف الذى آمن ثم نكص ، والذي انتفع آونة بإسلامه ثم آض إلى ما كان عليه بخال قوم كانوا يسيرون في مهمه متسع ، وفي فلاة فسيحة ،يلفهم فيها ظلام الليل الحالك ، فوقفوا حيث هم ، يتلمسون النجاة ولا سبيل إليها ثم نزل بهم مطر غزير فيه رعد وبرق وصواعق، وقصف الرعد ولمع البرق ، ودوت الصواعق ، وبين دفقات الخوف ودفعات الرجاء يمشون خطوات في

(١) البقرة ١٩-٢٠.

ضوء البرق الخاطف ، ثم يذهب البرق ويذهب معه الضوء ويطبق عليهم الظلام وتحيط بهم العتمة فيقفون في مكانهم ، ويقيمون علي حيرتهم ومخاوفهم مجترين أوهامهم وضلالتهم.

وبهذا التمثيل الرائع أظهر القرآن للمؤمنين أن المنافقين في كل عصر وآن متفاوتون ، ليسوا علي شاكلة واحدة في الزيغ والمروق ، والخروج علي الحجة والتعاليم ، منهم من استقي من نبع الإيمان الصافي ، ثم ارتد إلي الوحل يعبّ من الماء الراكد الآسن ، ومنهم من ظل هيمان صاديا بسدر في غوايته ، ويهيم في ضلاله بعد أن ازْوَرَّ عن المنهل العذب وهو منه جد قريب.

وإلي هذا يشير الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسيره فيقول: « ضرب الله تعالي لهذا الصنف في مجموعه (يقصد المنافقين فى كل عصر وزمان) مثلين ، ينبئان بانقسامه إلي فريقين خلافا لما عليه أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد. وأن معناهما وموضوعهما واحد.

(الأول): من أتاهم الله دينا وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمارها ، وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين علي الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحي ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهرا وباطنا ، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان

أمرا خصوا به ، أو خيرا سيق إليهم لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ،وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم، ولم تصلح به ضمائرهم فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في أنفسهم مجالا لغيرها؛ ولذلك لم يتفكروا قط في كونهم أحري بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم لأن حفظ الموجود أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان؛ لزعمهم أن فهمه لا يرتقي إليه إلا أفراد من رؤساء الدين يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، ويكتبهم إذا فقدوا ؛ فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول في فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة وانطماس الآثار دونها عنده مثل من استوقد نارا.

والوجه في التمثيل : أن من يدعي الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدي بها في الشبهات ، ويستضئ بها في ظلمات الريب والمشكلات ويبصر علي ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشبهات ، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدي والرشاد، وكاد بالنظر فيها يمشى على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث وعصب عينيه شيطان الغرور ، فذهب عنه ذلك النور وأطبق عليه جو الضلالة بل طفئ فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوي الشعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعمي الأصم الذى لا يبصر ولا يسمع.

وأمـا الفريق الـثاني فـقـد ضرب الله له المـثل في قـوله : ﴿ أو كـصـيب من الـســمـاء﴾، وهو الذى بقى له بصـيص مـن النور ، فله نظرات ترمي إلي مـا بين يديه مـن الهداية أحـيـانا ، ولمـعـاني التنزيل لمعان يسطع علي نفسه الفـينة بعد الفينة ، ويأتلق في نظره الحين بعد الحين ، عندما تحـركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فـيما بين يديه ولكنه من التقـاليد والبدع في ظلمـات حوالك، ومن الخبط فيـها علي حال لا تخلو من الهوالك وهو فى تخـبطه يسمع قوارع الإنذار الإلهي ، ويبرق في عينيه نور الهداية ، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار. وإذا انصرف عـنه يشبـه الضلالات الغـرارة قام وتحيـر ، لا يدرى أين يذهب ؟ ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع أصبـعيـه في أذنية حـتي لا يسمع إرشـاد المرشـد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقـتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه . هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالا ..».

ويبلغ القـرآن قـمة التـأثيـر ونهـاية الإبداع حـينما يـصور حـال المـعـوقـين عن الـجـهـاد ، ومـا يدور في قلوبهم مـن الفـزع والقلق والاضطراب فـيـقـول : ﴿ قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَـوِّقِـينَ مِنكُمْ وَالْقَـائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَـوْفُ رَأَيْتَـهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْـيُنُهُمْ كَـالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْـهِ مِنَ الْمَـوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِـحَّةً عَلَى الْخَيْـرِ

أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾[1].

فالصورة الأولي في الآيات صورة المعوقين عن الجهاد الفزعين من المضى إليه ، الذين لا يريدون أن يتحملوا نصيبا من أعبائه ، فهم ذوو نفوس قلقة مضطربة يتنازعها عاملان أساسان:

أولهما: هو الخوف الذى يسيطر عليهم من المآل الفظيع المحدق بهم لو انكشف أمرهم ، وبانت سرائرهم ، ومن هنا فهم يرتعدون في حركاتهم .

وثانيهما: هو الوصول الي غاية التثبيط عن واجب الجهاد، وهو عامل أقل شأنا في واقعهم من العامل الأول؛ لأنهم حينما ينادون حقيقة إلي الجهاد تترجرج أحداقهم في محاجرها دليلا على تقلصات نفوسهم من شدة الخوف.

والصورة الثانية: هى صورة من يعالج سكرات الموت ، يتنازع نفسه المآل المظلم والخوف العميق من الجزاء المحتوم ، دون أن تكون عنده القوة أو الإرادة التي يعتمد عليها في موقفه.

أليست صورة المشبه به موحية كل الإيحاء بما كان عليه أولئك المعوقون للجهاد من ضعف في الإرادة وخيبة في المآل؟

---

(١) الأحزاب ١٨-١٩

٣- إن عناصر التمثيل في القرآن الكريم مستمدة من الطبيعة ، تلك الطبيعة التي مازالت تشهد مرور الأجيال البشرية وهي ثابتة علي حالتها المتغيرة ، ومن هنا نلحظ ارتباط الإنسان - في أي جيل - بهذه الطبيعة التى تمثل المسرح الذي يمثل عليه الجنس الآدمي دوره في الحياة.

وكلما امتزجت عناصر هذا الاختلاط بين الإنسان والطبيعة ازدادت القرابة بينهما ، وبرزت الألفة القائمة علي معرفة الإنسان بأدق مظاهر الطبيعة ، ومن هنا فإن التمثيل في القرآن مستمر استمرار الطبيعة نفسها وعام يدركه الناس جميعا فنحن لا نكاد نجد في القرآن تمثيلا واحدا يدرك جماله شخص دون آخر ، أو يتأثر به إنسان دون إنسان ، فالتمثيل في القرآن يختلف عن التمثيل عند العرب فى الجاهلية مثلا ، لأن هذا الأخير مستمد من بيئة خاصة لا يدركه إلا من عاش فى هذه البيئة ، وعاش أشياءها علي اختلاف طبقاتها من نبات وحيوان وجماد.

فالطبيعة هى ميدان التمثيلات القرآنية . منها استمدت حيوتها ، وتجددها الدائمين دوام الإنسان والطبيعة.

والتمثيل عندما يستمد عناصره من الطبيعة التي تختلف من مكان إلي مكان وفي زمان عن زمان يهدف إلي أن يكون مؤثرا في كل وجدان مسيطرا علي كل تفكير فالقرآن عندما يوضح أعمال الكفار في

هذه الآيـة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١).

ندرك لأول وهلة أن أعمـال الكفار لا قـيمة لهـا ، ولا غناء فيـها ، مهما كلفت أصحابها من جهدٍ ومشقة ، ومهما بلغت من الخير ، فمثلها كمـثل السراب وهو ظاهرة من ظواهر الطبـيعة ، يغـري منظرها الظامئ، فيـسرع نحـوها ، متكلفـا في ذلك جهـدا حتي يصـل إلي مرمي البـصر لاهث الأنفاس خـائر القوى ، ثم لا يجد شيـئا ، فتصـورهنا كيف تكون نفسه بعد أن قطع مرحلة من المسير ، ولم يبل صداه ، وكذلك الكافر .

ثم انظر إلي الآية الثـانية ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(٢).

كلمـا هالك تمـثـيل في مـوقف ، وانتـقلت إلي غـيـره وجـدت الموقف أشد هولا ، وهل هناك أشد رهبة وظلمة من أمواج بحر لجى بعضها فوق بعض يكتنفهـا سحاب مظلم ؟ إن موقف الكفار الذين لم يؤمنوا بالله ورسـوله رهيب أرهب من أى شئ وأعـمالهم مظلمـة بل أشد ظلامـا من الليل، وليس أمامـهم بصيص من النور يهـتدون به إلي سواء السبيل.

(١) النور ٣٩.
(٢) النور ٤٠.

وهذا الانسجام في التنسيق بين الكلمات ظلمات ، في بحر لجى، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض، ينتقل بك إلى خضم لا تكاد تدرك فيه نفسك ، فتغمرك الخشية من جانب ، وتمثيل هؤلاء الضالين متخبطين فى عالم أسود ، لا ينبلج له صبح ولا تطلع فيه شمس، كما أن كلمات المشبه به المنسقة المترابطة توحي بالنهاية المحتومة التي تحيط بهؤلاء ، وبقلوبهم الكالحة التى لا تنبض بالرحمة ولا تلين للحق.

ثم تأمل هذه الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾(1).

إنها تمثل أعمال الكفار فى ضياعها وذهابها إلي غير عودة بالرماد الهش الذى تذروه الرياح وتذهب به بددا إلى حيث لا يتجمع أبدا .

إن القرآن يتخذ من الرماد وهو عنصر من عناصر الطبيعة مثلا لأعمال الكفار الضائعة ، ثم يبلغ قمة التأثير حينما يضم إلي الرماد الريح الشديدة العاتية إن الرماد البش لا يقوى علي الصمود أمام قوى

(1) ابراهيم ١٨.

الرياح العاتية العارمة ، إنه يتحلل ، وتتفتت ذراته ،و يصبح لا شئ في دنيا العدم وأعمال الكفار، مهما جلت وكثرت كهذا الرماد الذى انعدم؛ وتلاشى في جوف الريح الهادرة.

أرأيت أجمل من هذا التصويز الخالد ولا أعجب من هذا التمثيل المعجز؟

إن فى هذا التمثيل من قوة التأثير وجمال التعبير ما يعجز عن إدراكه أساطين البيان.

وعن بلاغة التمثيل في الآية الكريمة يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – :« ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معني ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشئ منها ، ولا الانتفاع به أصلا ، يجسمه فى هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا.

هذا المشهد ينطوي علي حقيقة ذاتية في أعمال الكفار ، فالأعمال التي لا تقوم علي قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله مفككة كالهباء والرماد لا قوام لها ولا نظام ، فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل ، فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا

بالباعث والقصد والغاية ، وهكذا يلتقى المشـهد المصور مع الحقيقة العميقة وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر[١].

وتأمل هذه الآية الكريمة « محمـد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحـماء بينهم ، تراهم ركعا سـجدا يبتغون فـضلا من الله ورضوانا ، سيـماهم[٢] في وجوههم من أثر السـجود ذلك مثلهم في التـوراة ومـثلهم فـي الإنجـيل كـزرع أخـرج شطأه[٣] ، فـــآزره[٤] فاستغلظ[٥] فاستوي علي سوقه[٦] يعجب الزراع[٧].

إن الآية الكريمة تمـثل حال الرسول ﷺ وأصـحابه – رضى الله عنهم – في ترقـيهـم في الزيادة إلي أن قووا واسـتـحكموا بزرع أثمـر وأينع، ثم قوى وغـلظ ثم استوي واسـتقام حـتي أعجب الخـاصة من الزراع والعامة من الناظرين.

إنه تمـثيـل عجـيب ، وتصـوير فنى بديع ،يسـتمـد عناصـره من الطبيـعة فيـصل إلي نهاية الايداع وقوة التـأثير إنه يجعلك كـأنك أمام مشـهد يفـيض بالحركـة والحياة ، يجـعل الغائب مـشاعـدا ، والخفى

(١) انظر في ظلال القرآن١٣/ ٧٥.
(٢) سيماهم : علامتهم.
(٣) شطأه : فروعه من الجانبين .
(٤) آزره : أعانه.
(٥) استغلظ : تحول من الدقة إلي الغلظة.
(٦) استوي علي سوقه : استقام علي ساقه.
(٧) الفتح ٢٩.

واضحا جليا ، ويقرب المراد من العقل ، ويرفع الأستار عن الحقائق ، ويعرض المعني في أسلوب مشوق موح مؤثر.

يقول المحقق الألوسى : « وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالي للصحابة رضى الله عنهم قلُّوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقى أمرهم يوما فيوما بحيث أعجب الناس.

ثم يتابع الألوسى[1] كلامه فيقول:« وفي الكشاف : هو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لبدء ملة الإسلام ، وترقيه في الزيادة إلي أن قوي واستحكم ، لأن النبى ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله تعالي بمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولي ما يحتف بها مما يتولد منها . وظاهره أن الزرع هو النبى ﷺ - والشطء أصحابه - رضى الله تعالي عنهم - فيكون مثلا له عليه السلام وأصحابه لا لأصحابه فقط».

والتمثيل القرآنى بهذه الخصائص الفنية التي لا توجد في غيره يعد من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، فأسلوبه يعجز أساطين البيان عن محاكاته ، ونظمه فوق طاقة البشر ، وتركيبه لا يقدر عليه إلا خالق الأرض والسماوات[2].

(١) تفسير روح المعانى ٢٦/ ١٢٧.
(٢) انظر ص ٩٣ وما بعدها من كتاب « الإعجاز في نظم القرآن » تأليف الدكتور / محمود السيد شيخون ، طبعة القاهرة ، سنة١٣٩٧هـ.

خاتمــــة

في هذا البـحث تناولت بالدراسـة والتحليل فـنا من فنون البيـان العربي هو « فن التمثيل ، فكشفت النقـاب عن مفهومه عندالقدماء من علماء البلاغـة والنقد، ثم تناولته بالدراسة عند ثلاثة من فرسـان البيان العربي هم عبد القاهر الجـرجاني ، وأبو يعقوب السكاكي، والخطيب القزويني ، فأمطت اللثام عن مفـهومه عندهم وتعرفت علي آرائهم في الفـرق بينه وبين التشـبيـه ، ثم ناقـشت هذه الآراء وبينت ما فـيهـا من قصور ، ثم سجلت في النهـاية ملاحظاتي مؤيدة بالأدلة والبراهين، ثم تناولت بالبحث والتحليل الأسرار التى ينطوى علـيها هذا الفن البيانى الجـميل ، ثم تناولت بالدراسـة والتحـليل التمـثيل في القـرآن الكريم فـأبرزت خصـائصه الفنيـة التي لا توجـد في غيـره والتي بها كـان من مظاهر الإعجاز في القرآن وخرجت في النهاية بالنتائج الآتية :

١- إن مفهـوم التمثيل كان عـاما عند القدماء من علمـاء البلاغة والنقد، فقد أطلقـوه علي كثير من الصور البيانية كـالاستعارة والكناية والمجاز.

٢- تحدد مفهوم هذا الفن علي يد ثلاثة من فرسان البيان العربي هم عبد القاهر والسكاكي والخطيب القزويني.

٣- إن التمثـيل يشتمل علي كثيـر من اللطائف والأسرار التي لا توجد في غيره من فنون البيان العربي.

٤- يرجع الفضل في اكتشاف معظم هذه الأسرار واللطائف إلى

الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

٥- إن التمثيل في القرآن يتصف بمجموعة من الخصائص الفنية لا توجد في غيره من التمثيلات المصنوعة ، وهو بهذه الخصائص يُعد من مظاهر الإعجاز في القرآن.

فهرس المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢- أسرار البلاغة - عبد القاهرالجرجاني ، ط القاهرة سنة ١٩٥٩م.

٣- الإيضاح - الخطيب القزوينى ط القاهرة سنة ١٩٦٦م.

٤- تفسير أبي السعود

٥- تفسير روح المعاني - محمود الألوسى.

٦- تفسير المنار - الأستاذ الإمام محمد عبده

٧- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني ، ط القاهرة سنة ١٣٣١هـ.

٨ - الصناعتين : أبو هلال العسكري، ط القاهرة سنة ١٩٥٢م.

٩- العمدة - ابن رشيق القاهرة ، سنة ١٣٠٧هـ.

١٠- في ظلال القرآن - الشيخ سيد قطب.

١١- القاموس المحيط - أبو طاهر الفيروزآبادى

١٢- من بلاغة القرآن - الدكتور أحمد بدوى ،ط القاهرة سنة ١٩٥٠م.

١٣- مفتاح العلوم - السكاكي ط القاهرة سنة ١٣١٧هـ.

١٤- نقد الشعر - قدامة بن جعفر الكاتب ، ط الجوانب ، سنة ١٣٠٢هـ

الفهـــرس